الرافد التاريخي في نشيد الأناشيد لمفدي زكريا

د . ملفوف صالح الدين
جامعة خميس مليانة
Melfouf.2012@gmail.com

ملخص :

بمناسبة العيد العاشر لاسترجاع الجزائر استقلالها، واحتفاء بالذكرى الألفية لتأسيسها على يدي بلكين بن زيري، انعقد في الجزائر العاصمة الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي من 24 جويلية إلى 10 أوت 1972 م، وقد ركز الساهرون على فعاليات هذا المحفل العلمي على التاريخ، فارتأى شاعر الثورة التحريرية المظفرة **مفدي زكريا** أن ينظم نشيدا يليق بمقام الحدث، فكان هذا النشيد:"إلياذة الجزائر" أو "ملحمة الجزائر"، مادته في ذلك الأحداث الحربية والسياسية والثقافية التي شهدتها الجزائر على مر العصور والأزمنة، وهذا ما سيسعى بحثنا إلى إماطة اللثام عنه.

Resume :

L'occasion du dixième anniversaire de l'indépendance de l'Algérie et à celle du millénaire de sa création par BELKINE BEN ZIRI. La sixième rencontre a eu lieu pour connaitre et faire connaitre la pensée islamique cela du 24 juillet au 10 aout 1972, les organisateurs de cette rencontre ont insisté sur l'histoire du poète révolutionnaire Mofdi Zakaria qui n'a pas hésité d'écrire un hymne qui correspond à l'événement qui était l'Iliade algérienne en se basant sur les événements révolutionnaires, politiques et culturels qu'a vécu le peuple algérien au fil des temps et des ères. Cela fera donc l'objet de notre étude dans ce travail

OOO

الأناشيد في مفهومها العام هي فن من فنون النظم التي انتشرت عشية الثورة التحريرية وهي على أنواع: منها الأناشيد الكشفية التي تدعو إلى

الشجاعة والإيثار والصحة البدنية. ومنها التعليمية التي شاعت في المدارس والتي تعتمد التوجيه والتأثير في الفتيان والشباب، تنفخ فيهم الروح الوطنية والإسلامية والأخلاق الفاضلة. وبعد قيام الثورة التحريرية المباركة، أصبحت الأناشيد سياسية ـ وطنية تنمي الاعتزاز بالوطن وأهله، وتحث على الالتفاف حول الثورة وخدمة الأهداف البعيدة التي تعمل على تحقيقها مثل: الاستقلال والحرية وإقامة الدولة الحديثة.

يعد **ابن تومرت** 1 شاعر الثورة الجزائرية دون منازع، وهو صاحب الأناشيد الوطنية الخالدة مثل: « من جبالنا طلع صوت الأحرار » سنة 1932 م ، و « فداء الجزائر روحي و مالي » المكتوب سنة 1936 م الذي أصبح على لسان كل الجزائريين آنذاك، إذ كانوا يرددونه جماعيا في المظاهرات ضد الاحتلال الغاشم، يقول الشاعر في مطلعه:

فداء الجزائر روحي و مالي إلا في سبيل الحرية
فليحي حزب الاستقلال و نجم شمال إفريقية
و ليحي شباب الشعب الغالي مثال الفدا و الوطنية
ولتحي الجزائر مثل الهلال و لتحي فيها العربية

وفي سنة 1955م ظهر نشيد « قسما »، وهو نشيد نموذجي تمثل الشاعر فيه مبادئ الثورة التحريرية المظفرة وعظمتها، فعبر عن أهدافها بلغة قوية وحماسة مزلزلة مستوحاة من حب الوطن وتجربة الشاعر السياسية وبغضه للمستعمر، ذلك أن مفدي زكريا كان قد دخل السجن وتعرض للقمع في سبيل هدفه الوطني، فلا غرابة أن ينفجر حماسه للثورة وأن يتميز تعبيره عنها بالصدق والتلقائية والقوة والفخامة، ومنه هذا المقطع :

نحن جند في سبيل الحق ثرنا و إلى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يصغى لنا لما نطقنا فاتخذنا رنة البارود وزنا
و عزفنا نغمة الرشاش لحنا و عقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا .. فاشهدوا .. فاشهدوا 2

وفي سنة 1956م نشرت جريدة (المقاومة الجزائرية) نشيدا من نوع جديد عنوانه «بنت الجزائر» وهو في تمجيد دور المرأة واستنهاض همتها وهمة الشباب للتضحية من أجل الجزائر، وربطهم بماضيهم العربي والجهادي، يقول الشاعر على لسان إحدى المجاهدات:

أنا بنت الجزائر أنا بنت العرب
يوم نادى المنادي و دعا للكفاح
قد هجرت سهادي و تركت المزاح
و بدأت جهادي و غدوت الجناح
أنبري للأعادي و أداوي الجراح
أنا بنت الجزائر أنا بنت العرب 3

وفي الفترة نفسها صدر « نشيد بربروس » أو « اعصفي يا رياح » الذي نظمه في سجن سركاجي كما يعرف محليا، وقد نشر هذا الأخير في العدد الثاني من جريدة المجاهد الصادر سنة 1956 م دون ذكر اسم الشاعر، ومطلع هذا النشيد:

اعصفي يا رياح و اقصفي يا رعود
و أثخني يا جراح أحدقي يا رعود
نحن قوم أباة ليس فينا جبان
قد سئمنا الحياة في السقا و الهوان
أدخلونا السجون جرعونا المنون
ليس فينا خؤون ينثني أو يهون
اجلدوا عذبوا
اشنقوا و اصلبوا
و احرقوا و اضربوا
نحن لا نرهب

ويتألف هذا النشيد من عدة مقاطع، وهو بدون توقيع، وكل مقطع منه ينتهي بعبارة: أنت يا بربروس4 ، وقد أمرت جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة المسلحة المحكوم عليهم بالإعدام أن يرددوه عند مواجهتهم المقصلة. وفي العدد ذاته من جريدة المجاهد نشيد متوسط الطول وموحد القافية، ولكنه بدون توقيع أيضا يحمل عنوان « أرض الجزائر في إفريقيا قدس » ، يخاطب صاحبه فيه السجن الذي طالما هد كيان الجزائريين وكان رمزا للطغيان والتعسف، يقول الشاعر:

سيان عندي مفتوح و منغلق يا سجن بابك أم شدت به الحلق 5

أما قصيدة « أنا ثائر » لابن تومرت، فقد أضافت لها جريدة المجاهد عنوانا فرعيا هو (من أدب الثورة) وجاء فيها:

ظلموني ، و استباحوا الحرما صحت وامعتصا

لطموني ، لم يراعوا الكرما

وقد انتهى النشيد بهذا المصراع:

أنا ثائر في الجزائر أنا ثائر إن أمت : تحيا الـجـزائـر 6

ولابن تومرت أناشيد أخرى منها : تحية العلم الوطني، ونشيد الجيش الوطني، ونشيد العمال،... وغيرها كثير، كما حظي الطلبة بنشيد خاص من شاعرنا، وهو نشيد يتألف من أربعة قفلات، ويبدو أن الشاعر أعده بمناسبة انعقاد المؤتمر الرابع للطلبة المسلمين الجزائريين في تونس سنة 1960م. وقد جاء فيه تمجيد قوي لدور الطلبة في الثورة التحريرية، يقول الشاعر:

نحن طلاب الجزائـر نحن للمـجـد بنـــاة
نحن آمال الـجزائـر في الـلـيـالـي الحالكات
كم غرقنا في دماها و احترقنـا فـي حماهـا
و عبقـــنا في سماها بعـبـيـر الـمـــهـجـات 7

وبغرض مراجعة التاريخ الجزائري، وكتابته من جديد، وتصفيته من جميع ما علق به عن قصد وسبق إصرار من شوائب وتحريفات، لمعرفة ماضينا، والاستفادة من تجاربه في بناء حاضرنا ومستقبلنا، استقر رأي شاعرنا " ابن تومرت " على وضع نشيد جديد يجمع كل الأناشيد المشار إليها آنفا، ويشمل فيه وبه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها، رافده في ذلك أحداث العهود الحضارية الزاهرة المتعاقبة.

يستهل ابن تومرت نشيده هذا متغنيا ببلاده الجزائر وما وهبها الله سبحانه وتعالى من جمال وبهاء، فيقول في ذلك:

جزائر ، يا مطلع المعجزات و يا حجـــة الله في الكائنـات
و يا بسمة الرب في أرضه ويا وجهه الضاحك القسمات
و يا لوحة في سجل الخلود تموج بهـا الصور الحـالمـــات
و يا قصة بث فيها الوجود معاني السمو بروع الحيـاة 8

وبعد هذا يجول بنا الشاعر في مختلف ربوع وطنه الغالي، منتقلا من منطقة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر، وبعد المقاطع العشرة المنفصلة عن بعضها باللازمة التي يقول فيها:

شغلنا الورى ، و ملأنا الدنا
بشعر نرتـلـه كالصـلاة
تسابيحه من حنايا الجـــزائر

يبدأ الشاعر باستعراض تاريخ الجزائر منذ نشأتها الأولى فيقول:

وقفنا نحيي بـــــها ألف عـام ونقرئ زيري العـظيم السلام
فقام بولوغـــــين في عيدنـا يهز الدنـــا ، و يروع الأنـــام
وسيبوس فـــاض فتاه دلالا يعانق زيري الـــمليك الهمـام
بولوغين إن صانها فيرموس وحازت إكوسيوم أـــقصى المرام
وهب الأمازيغ من دونـاطو س تصول و تزجي الخميس اللهام
فأبنـاء مازيغ قادوا الفـــدآ وخاضوا المعامع ، يـوم الصدام 9

إن الحقبة التاريخية التي تجسدها هذه الأبيات هي حقبة موغلة في القدم تعيدنا إلى تأسيس الجزائر قبل ألف عام، على يد **بولوغين بن زيري بن مناد** الذي بنى عاصمتها سنة 392 للهجرة، و أما سيبوس فهو الاسم القديم لمدينة عنابة، ووادها "سيبوس" يدل على التسمية القديمة التي أطلقها زيري بن مناد عليها، ثم ينقلنا الشاعر في البيت الموالي إلى الملك المازيغي **فيرموس بن نابال**، هذا المقاوم الكبير الذي أثار جبال جرجرة والأوراس وإفريقيا بأكملهـــا ضد روما، وهب لنصرته أهل البوادي من شيعة **دوناطوس** وحتى بعض الضباط الرومان، وبويع ملكا على الديار المغربية "إيكوسيوم" التي ستصبح فيما بعد عاصمة الجزائر، فاتخذها فيرموس عاصمة له آنذاك، واستولى على شرشال وقاوم جحافل الكونت **دوسونس**، وما انهزم إلا عندما غدر به أخوه **جلدون**، فسلمه للرومان من فراش نومه، قبل أن يدرك سوء صنيعه ويعلن الحرب عليهم.

ينقلنا الشاعر في المجموعة الموالية إلى الحقبة التاريخية التي أعقبت حقبة التأسيس وهي حقبة **ماسينيسا ويوغرطا** من بعده، يقول في هذا الشأن:

دعوا ماسينيسا يردد صـــــدانا ذروه ، يخلـد زكـي دمانـــــــا
و خلوا سفاكس يحكي لرومـــــا مـدى الدهر كيف كسبنـا الرهانا
وكيف غدا ظافرا ماسينيسا بزامة لم يرض فيها الهـــــــــوانـا
و كم ساوموه ، فثـــــــار إباء و أقسم أن لا يعـيش جبانـــــا
و ألهمه الحب نيل المـــــــعالي و قد كان ـ مثلي ــ يهوى الحسانا
و من صنعت روحه سوفونيزيـــا جديـــر بأن يتحدى الزمانـــــا
فجاء يغورطا على هديـــــــه بحكم الجمـــاهير يفشي الأمانـــا
و قال : مدينة روما تـــــــبا ع لمن يشتريها !! فهز الكيانـــا

و وحد سيرتا بأعطاف كـــــــاف و أولـــى الأمازيغ عزا و شانا 10

كان الملك المازيغي **سفاكس** (صفاقص) مواليا للرومانيين، فقام **ماسينيسا** ابن غادا الملك المازيغي يحارب الرومانيين وسفاكس معا، وكان مصدر إلهامه تزوجه بالعالمة والفيلسوفة المؤرخة القرطاجنية **سوفونيزيا**، فأعانه ذلك على إقامة إمبراطورية في نوميديا وجزء كبير من التراب التونسي وأجلى الرومان عن مملكته، ثم تغلب الرومان عليه في واقعة "زامة" وراودوه على أن يكون حليفا لهم، ولكنه رفض واستمر في الدفاع عن وطنه، وكون إمبراطورية قوية، وطور الزراعة، مما جعل الرومان يكيدون له، إلى أن توفي وقد قرب من التسعين، بعد أن انتصر في زامة.

بعد ماسينيسا جاء **يغورطا**، وهو أحد الملوك المازيغ وحفيد ماسينيسا، اغتنم فرصة الحرب بين روما وقرطاجنة البونيقية فثار على الاثنين وأسس الإمبراطورية الأمازيغية، وقد أقامها على أصول أمازيغية بحتة في نظام الحكم الجمهوري، وبعث الثقافة والقيم الأمازيغية الأصيلة، وجعل عاصمتها مدينة "قرطا" (سرتا أو قسنطينة اليوم)، وامتد حكمه إلى الغرب التونسي فكانت له عاصمتان: "الكاف" ومدينة "تاله"، وانضم إليه الأمازيغ فوحد صفوفهم وقادهم من نصر إلى نصر، وكان يقول: « مدينة روما مبتاعة لمن يريد شراءها » ، استهواء للقادة بهذه المقولة.

ويواصل الشاعر في استعراض الأشاوس من المازيغ الذين صنعوا تاريخ الجزائر ببطولاتهم الخالدة وصمودهم في وجه الجحافل الرومانية فيقول:

سلوا طبرية يذكر تبيريـوس تكفرنـاس يوالي الـهـجـــــــــوما
ثمان سنين يصارع رومـــــا فدق المـسامير فـي نعش رومـــــا !
....
سلوا بربروس يجبكم فـــــرا كسن من جرجرا كيف أجلى الغيوما
....
و هذا أغوستنس بالاعتـــر افات حير ـ عبر الزمان ـ الـــــفهوما
و أسقف بونة أصبح قـــــد يس قرطاج مذ بث فيها العلومـا 11

تيكفرناس هو أحد الثوار المازيغيين الجزائريين على عهد الإمبراطور الروماني **تبيريوس** الذي شيد طبرية، وقد انتصر تيكفرناس على عديد من جيوشه، فعزل من أجله عدة ولاة من الرومانيين، ودامت الحرب التي أثارها في

كامل القطر الجزائري وتونس والمغرب ومن التل إلى الصحراء سنوات ثمانية، احتاجت إلى عدة جيوش أرسلت كمدد من روما كلها اندحرت أمام صمود الأحرار الوطنيين من جبال الأطلس. وبجبال جرجرة والبابور، ثار **فراكسن** فصادمه الإمبراطور الروماني **بربروس** قادما من روما، ودامت الحرب بينهما أعواما، كلما قضى فراكسن على جيش جيء بجيش غيره حتى ضاقت روما بذلك. ومن ميدان الحروب ينقلنا الشاعر إلى العلوم والدين، وكيف أن **أغوستنس** * أقبل على دراسة النصرانية حتى صار رئيس الأساقفة بمدينة قرطاجنة بعد أن كان أسقف " بونة " (عنابة حاليا) ، وهو إلى جانب ذلك فيلسوف ومفكر، ويصنف من قبل الباحثين والدارسين في زمرة كبار المؤرخين بكتابه (الاعترافات) .

ويتابع الشاعر في استعراض تاريخ الجزائر الثقافي والعلمي، بذكر إنجازات أبناء هذا الوطن فيقول منشدا:

لماذا يلقب يـوبـا بثـــــان ؟ أما حقق السبق في الـمدنيـــة ؟
....
أما كان أول من خط رسمـــا لوجه جزيرتنا الـــعـربيـة ؟
أما شاد يوبا بشرشال للعـلم أول جامعـــــــــة أثـرية ؟
و هذا أبولوس كان طبـــيبا يدين له الـعلم بـالـعبقريـة
و أبدع في قصص الـحيـــوا ن ، فأثر في الـقصص الأموية
....
و كان أبولوس قاضي رومـا ليمنـــاه ، ترفع كل قضـية 12

يعد **يوبا الثاني** ولي عرش الأمازيغ بشرشال التي كانت تسمى يومئذ (القيصرية)، واستقل بولاية موريطانيا القيصرية الواقعة بين سرتا وموريطانيا الطنجية، وكان عالما كبيرا علاوة على أنه كان سياسيا ماهرا، وعسكريا مظفرا، اتخذ من شرشال ضرة لروما وزينها بالمعالم الفاخرة والقصور والمعابد والمسارح، وأسس بها جامعة كبرى للعلوم والآداب والفنون من تمثيل وموسيقى ونحت، فكانت أول جامعة من نوعها في الغرب وجلب لها كبار الأساتذة من اليونان، وألف دائرة معارف شاملة في كافة العلوم، وهو أول من وضع جغرافية لجزيرة العرب.

وأما **أبولوس** ابن مداوروش، فقد أجاد اللاتينية واليونانية، ثم انتقل إلى جامعة قرطاجنة فتخرج في الحقوق، والآداب، والطب، وامتاز بمخبر

للتجارب والتركيب والتشريح، تقدم به علم الطب لمعرفة العلل وتحضير الأدوية، وأسرار النباتات الغذائية والاستشفائية، كان شاعرا باللاتينية وراوية ممتازا، ألف كتاب (التحولات) أو المسخ، وهو قصة طريفة، وكتاب (تقلبات الحمار)، ونقل عنه الأمويون بعض قصصه على ألسنة الحيوانات، كان يدعى إلى روما للمرافعات في القضايا الكبرى ثم أصبح قاضيا بها.

بعد فترة حكم المازيغ المليئة بالإنجازات العسكرية والعلمية، هبت رياح التغيير على جزائرنا نتيجة الفتوحات الإسلامية التي قادها **عقبة بن نافع**، فكان لهذا الأخير بصمات خلدت اسمه في التاريخ العسكري والحربي، وهذا ما تجسده الأبيات التالية:

و مرحى لعقبة فـي أرضنا ينير الحجى و يشيع اليقينا
و يعلي الصوامع في القيروا ن و يرفعها للدفاع حصونا
يبث المراحل في كل فـــــج فراعت أساليبه الـعالمينا 13

تشير الأبيات السالفة الذكر إلى الخطة الجديدة التي وضعها عقبة بن نافع في زحف الجيش الفاتح في طريقه من مصر إلى المغرب، وملخصها أن الطريق من مصر إلى القيروان، إما بحرية مخيفة لوجود الأسطول البيزنطي، وإما جبلية والأمازيغ في الجبال ومغاورها كثيرة وغاباتها كثيفة فلا يأمن الكمائن فيها، فأسس مراحل على طول الطريق مزودة بالماء والزاد والمخيمات، فإذا وصلها الجيش استراح واغتسل وأكل وشرب ونام وتزود وانتقل إلى التي بعدها على أتم وأوفر عدة، وقد انتفع بهذه الخطة الكثير من القادة العسكريين في عصرنا الحديث من قبيل القائد الألماني **مللر**، والقائد الإنجليزي **مونتغمري** حين اجتاز ليبيا في الحرب العالمية الثانية.

ينقلنا الشاعر إلى إنجاز جديد تحقق على يد الدولة الرستمية، وهذا الإنجاز شمل الحياة السياسية والاجتماعية، وهذا ما تشير إليه أبيات الشاعر الموالية:

و هال ابن رستـم أن لا نسود و نبنـي كيانـــا لنا مستـقـــلا
فـقـام بتاهرت يعلـــي اللوا ء و يرسي نظاما و ينشر فضـلا
يوجـه حكم البلاد الشـــرا ة بوحي الشريعة حقا و عـــدلا
و يجعل أمر الجماعة شـــورى و حق انتخاب الإمامة فصلا14

لقد نقل الرستميون إلى تاهرت نظام الدستور الإيراني الجامع كأساس لنظام الحكم، وسمي بالجامع لأنه يشمل إلى جانب نظام الحكم: آداب

السلوك، وآداب المجالس، وآداب الأكل والشرب والكلام، وشروط القضاء والشورى، وانتخاب الإمام، والنظام العسكري، ثم إن الدولة مراقبة من منظمة شعبية حرة تسمى الشراة، ومهمتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتولية الحكام وعزلهم إذا حادوا عن الجادة.

يأخذ الشاعر بيدنا في الأبيات التالية إلى حقبة تاريخية جديدة شهدتها الجزائر هي فترة حكم الأغالبة وما كان فيها، يقول في ذلك :

و إن تسألوا عـــــن بني الأغلب — سلوا الزاب عن جاره الأقــرب
و طبنة .. هل تذكر ابن الحســ — ين التميمي و تاريخه القرطبى
و عند مسيــلة علم اليقـــــ — ين بمن حققوا وحدة الـمغرب
برى الفاطميون شعر ابن هــا — نئ كما يخلق اللحن للـمطرب
..... — .....
علام يلقــب أندلـسيـــــــــا — فتى مغربي، أصيـــل الأب ؟؟
فكم حسدونا على مجدنـــــــا — وجاروا على الـبلد الطيب!15

يشيد الشاعر في هذه الأبيات بفترة حكم الأغالبة من خلال علمائها و مفكريها، فيذكر على رأسهم **محمد بن الحسين التميمي**، وهو أحد أعلام الفكر الذين أنبتتهم طبنة، كاتب بليغ ومترسل بديع الإنشاء، انتقل إلى الأندلس في أيام الخليفة المنصور الأموي، وكان شاعر البلاط ومؤرخه، استوطن قرطبة إلى أن توفي بها. أما في المسيلة فقد نبغ في أحضانها **ابن هانئ الجزائري** الملقب بالأندلسي تجنيا على التاريخ، وكان يلقب في زمانه بمتنبي المغرب. وأما البيت الأخير ففيه إشارة إلى تقصير المشارقة في تأريخهم للأدب العربي، فهم لا يذكرون مفاخر الجزائر وتونس والمغرب، ويقفزون من الشرق إلى الأندلس مباشرة كأنما المغرب الكبير لا وجود له في الخريطة بدافع الكبرياء والغرور ومركب الاستعلاء.

بعد هذه الانجازات التاريخية الكبيرة، حاول الغرب أن يستهدف الجزائر وخيراتها، فكانت أولى الحملات على الشواطئ الجزائرية، وهذا ما تنطق به الأبيات التالية:

و أوغر قلب الـصليب الحقـــود — علانا ، و أمعـــــن فينا الحسود
و طافت بوهران جيطان غدرا — و زيان ما اسطـاع حـشد الجنود
و لعلع في بربروس نداهـــــــا — فثار ... و أقــسم أن لا يعـــود
و للدين خير يصون حمـــــاه — و أسطولنا في البحـار يسود 16

تتحدث هذه الأبيات عن تلك الحملات الصليبية القذرة على المرسى الكبير ووهران، فقد تواطأ على الجزائر كل من الاسبان والبرتغال والفرنسيين بقيادة الراهب **خيمينيز**، وكانت اللصوصية أو القرصنة البحرية على أشدها آنذاك، فالاسبان والبرتغاليون أوجدوا مع غيرهم من لصوص أوربا سفن القراصنة، وانهالوا على مهاجري الأندلس والمدن الجزائرية المتاخمة للبحر نهبا وسلبا، وجاء الإنقاذ على يد بطلين تركيين هما **بابا عروج** وشقيقه **خير الدين**.

إن هذه الحملات الصليبية المشار إليها آنفا لم تكن إلا تمهيدا لما هو أخطر، ونقصد بذلك الحملة الفرنسية، هذه الأخيرة التي غلفت بالطابع الديني وأنها نصرة للمسيح أولا وأخيرا، وهذا ما قال به **شارل العاشر** ملك فرنسا، حين وقف في خطاب العرش يوم 02 مارس 1830م ومفاده: « إن العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بإعانة الله القدير لفائدة المسيحية جمعاء». والحقيقة أن قضية التخطيط لاجتياح فرنسا للجزائر كانت قبل ذلك، فقد انتفع الجيش الفرنسي عند حملته سنة 1830 م برسوم الجاسوس الفرنسي **بوتان** التي تحدد خطة الهجوم من ثغر سيدي فرج بأمر من **نابليون بونابارت**، وهذا دليل التخطيط المسبق للقيام بهذا الصنيع، يقول ابن تومرت في هذا الشأن:

و جاءت فرنسا ... فكنا كراما و كنا الألى يطعمون الطعاما !
....
و خرب شارل المريض فرنسا فثار بها الشعب يغلي انتقاما
....
و أوحى له قمحنا غزونـــا فأطلق هذي القموح سهامـا
....
أبوتـان ... هل ســيدي فرج وإن طال ليل ... أقر النظاما 17

بمجرد أن وطأ الاستعمار الفرنسي بقدميه أرض الجزائر، اندلعت نيران المقاومة في كافة الأرجاء، وقد اتخذت هذه الأخيرة بعد الاحتلال شكلين: سياسي رسمي، وشعبي، فأما السياسي فقد تولى زمامه **الحاج أحمد** باي قسنطينة وانتهى بسقوط مدينة قسنطينة سنة 1838م، وأما الشعبي فكان بتولية رؤساء القبائل **عبد القادر بن محيي الدين** أميرا عليهم سنة 1832م، وأوكلوا

إليه مهمة تأسيس دولة جزائرية إسلامية، تصون الأمن وتوطد العدل وتتصدى للمعتدي.

وبعد توالي الثورات الشعبية والجهود السياسية غير المضنية، بزغ على الجزائريين فجر جديد هو فجر الفاتح من نوفمبر سنة 1954م، وهذا ما يجسده الشاعر في قوله:

تأذن ربك ليلـــــــة قـدر و ألقى الستار عـــلى ألف شهر
و قال له الشعب : أمرك ربي و قال له الرب : أمرك أمري !!
....
نفمبر ... غيرت مجرى الحـياة و كنت ـ نفـــمبر ـ مطلع فجر
و ذكرتنا ـ في الجــزائر ـ بدرا فقمنا نضاهي صحابة بـدر 18

لقد أشرقت شمس الاستقلال والحرية على الجزائر تتويجا لجهود أبطالها البررة وتضحياتهم الجسام، فاستشعر الأبناء مسؤولية البناء والتشييد الملقاة على عاتقهم، وهذا ما عبر عنه شاعرنا بقوله:

و طالعنا بالبشائر يونيـــو فأنعش كالعارض المرجـــحن
فقمنا نشيد اقتـصـاد البلا د و نعلي المصانع فيها و نبـين
و رحنا نوفر للكادحـــــين الرغيف الشريف بعلم و فــن
و يزرع فلاحنا أرضـــــه بذوب الشــرايـين لا بالتـــمين
و نصنع من صلب واقعنـا مذاهـــبنا.. رافضين التبين19

أخطأ من ظن أن الجزائر قد انتهت من الثورة، لأن الثورة الحقيقية قد بدأت بمجرد نيل الاستقلال، والمقصود هنا ثورة البناء على جميع المستويات والأصعدة، وهذا ما تشير إليه الأبيات الأخيرة بدءا بالاقتصاد مرورا بالعلوم والفنون، وصولا إلى بناء الذات والضمير، وهي أهم الثورات لأنها ترسم المعالم الحقيقية لشخصنا وتذود عن عاداتنا وتقاليدنا وديانتنا ضد كل من تسول له نفسه المريضة طمسها.

وخلاصة القول، إذا كان للإغريقيين إلياذتهم، وللرومانيين إنياذتهم، فإن للجزائريين بفضل ـ مفدي زكريا ـ ملحمتهم المخلدة لتاريخهم العريق، وقد شكل هذا التاريخ بأحداثه المختلفة المعين الأساسي والمنهل العذب الذي استقى منه شاعرنا مضامين إلياذته وانبنت عليه أبياتها. وقد تتبع الشاعر في نشيده هذا تاريخ الجزائر منذ نشأتها الأولى وتعاقب الملوك المازيغيين على حكمها وكيف وقفوا في وجه أعتى الإمبراطوريات وأباطرتها آنذاك، قبل أن

يشملها الإسلام بنوره بفضل فتوحات عقبة بن نافع، وما كان بعده من تعاقب الدول كالدولة الرستمية ودولة الأغالبة وإنجازاتهم الخالدة، ثم تكالب الصليبيين عليها من إسبان وبرتغاليين وفرنسيين، لترفع الجزائر التحدي وتطرد المستعمرين الغاصبين من أرضها، وتشرع في مرحلة ما بعد الاستقلال وتذليل الصعوبات والتحديات التي واجهتها.

الإحالات

1 – يذهب الجابري في كتابه « النشاط الثقافي و العلمي في تونس» إلى أن اسم ابن تومرت كان يوقع به أحد الأدباء الجزائريين في تونس، و هو محمد العربي ، و بعد وفاته أصبح مفدي زكريا يوقع به .

2 – نظم النشيد في سجن سركاجي بتاريخ 25 أفريل 1955 م في الزنزانة رقم 69 . للاستزادة أكثر: ينظر مفدي زكريا. اللهب المقدس. المكتب التجاري. بيروت . ط1. 1961م . ص 71 .

3 – جريدة المقاومة . عدد 3 . 03 ديسمبر 1956 م .

4 – مفدي زكريا . اللهب المقدس . ص 88 .

5 – ينظر . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . دار البصائر . الجزائر . ج 10 . طبعة خاصة . 2007 م . ص 502.

6 – جريدة المجاهد . العدد 44 . جوان 1959 م .

7 – جريدة المجاهد . العدد 74 . 08 أوت 1960 م .

8 – مفدي زكريا . إلياذة الجزائر . طبعة خاصة (نظمت للملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي) . من 24 جوان إلى 10 أوت . 1972 م . ص 04 .

*الخميس اللهام : الجيش الجرار .

9 – المصدر السابق . ص 15 .

10 – ينظر . م السابق . ص 16 .

11 – ينظر . م س . ص 17 .

*ولد أغوستنس بثاقست (سوق أهراس الحالية) و تعلم بها ثم انتقل إلى قرطاجنة فحذق اللاتينية و اليونانية .

12 – ينظر . م س . ص 18 .

13- م س . ص 20 .

14 – م س . ص 21 .

15- ينظر . م س . ص 22 .
16- م س . ص 29 .
17- ينظر . م س . ص 30 .
18 – ينظر . م س . ص 45 .
19 – م س . ص 50 .